الآخر في خطاب الإمام الحُسين عليه السلام

المدرس الدكتور
خالد حويِّر الشمس
كلية الآداب ـ جامعة ذي قار
dkalshamssh@yahoo.com

مطلع البحث:

لكل ورقة بحثية هدف تطمح إليه وإلا أصبحت مرذولة، وهدف هذه الورقة هو الوقوف على فلسفة الإمام الحُسين في الكيفية التي التجأ إليها في خطابه مع الآخر. وتم البحث عن تلك الكيفية عبر أسئلة تحرك البحث في ضوئها هي: من هو الآخر الذي صادف الحُسين؟ وهل ينسجم منهج الأنا والآخر مع خطاب المعصوم؟ ماهي التدبيرات التشكيلية في رسم خطابه له؟

ولا بد من التنويه بأن البحث في الآخر ينتمي الى حقول فكرية متعددة منها علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الفلسفة، وعلم النقد. والانتماء الى النقد من جانب أنه رؤية للنظر من قِبَل المنتج فيما يصادفه من القيم، أو الزمكان، أو الإنسان، ويترك انطباعا عنه في نتاجه، أو يترك صورة عنه، أو يرسم متخيلا له، ولعل هذه الأشياء توافرت على خطاب الحُسين النثري، الذي التمست الآخر فيه على أساس الثنائيات الضدية: الموت والحياة، الزمان والمكان، الفرد والجماعة، الصديق والعدو. كان لهذه الثنائيات حضور بارز بصياغات لسانية هدفها إقناع ذلك الآخر، وتغيير قناعاته في المشارب السياسية، والاجتماعية، والدينية، والفكرية، فشكل منتوج الإمام خطابا يحتوي على قيم، مدفوعا الى متلق آخر مرسوم الصورة في ذلك الخطاب المتوحِّد في موضوعه، ورؤيته الإصلاحية، والدينية، كل ذلك دَفَعَ بأنْ نعرِّج على مفهوم الخطاب، وخصيصة الخطاب الحُسيني الحاوي على الآخر، ثم بيان تمثلات الآخر في خطابه بحسب تلك الثنائيات، وبحسب قراءة النصوص وتأويلها، واستنطاق الآخر منها.

معنى الخطاب:

قبل أن ألج إلى مفهوم الآخر وبيان طبيعته في خطاب الحُسين أرغب بإيضاح معنى الخطاب في المقولات اللسانية، والتنويه على أنه خضع للتدرج في احراز دلالته؛ إذ جاء مرادفا للكلام عند سوسير ت١٩١٣م، ثم دل على ما تجاوز حدود الجملة عند هاريس ت١٩٤٧م، وما دل على الملفوظات والحواريات الطويلة عند باختين ت١٩٧٥م، ثم أضاف اليها فنسنت: الحواريات التي تفوق الجملة، وتولدها لغة جماعية[١].

إلى أن جاء ميشال فوكو ت١٩٨٤م وأعطاه الصبغة الابستيمة في تعريفه، فأضحى له مفهومان، الأول ذو السمة الشكلية، والآخر ذو السمة المعرفية/ الشكلية في ضوء المعطيات المكونة له. وورد مصطلح الخطاب في التعريف العربي، متسما بالسمة الأولى، فيل فيه ((اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيء لفهمه، فاحترز باللفظ عن الحركات والإشارات المفهمة بالمواضعة، وبالمتواضع عليه من الأقوال المهملة، وبالمقصود به الإفهام عن كلام ما لم يقصد به إفهام المستمع، فإنه لا يسمى خطاباً)) [٢].

وأظن أنَّ هذا المفهوم تحطَّم في البحث العلمي أو الأدبي في العصر الحديث، فلا يشترط التواضع على سمة الخطاب أو الاتفاق، فالمتكلم يوجه خطاباً لمتلقٍ لا يعرفه سوى أنه متلق، ويصل إليه عن طريق الكتابة أو وسيلة الإعلام، وقد يحدث التأثير والتأثر على وفق الحجج التي تقدم مع الخطاب.

فمفهوم الخطاب هنا ((إجمالًا مجموعة التراكيب المكتوبة أو المنطوقة التي تمثل في نظر المنشئ سلسلة تلفظية متجانسة، ومؤثرة))[٣]. ويتمتع ذلك المجموع بوحدة الهدف، وبتنوع الأدوار.

وهناك مفهوم أشمل من هذا لدى أشهر رواده وهو ميشال فوكو منطلقا من معيار ابستيمي/ شكلي: ((بأنَّه شبكة معقدة من العَلَاقات الاجتماعية، والسياسية، والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب ينطوي على الهيمنة، والمخاطر في الوقت نفسه))[٤].

يضاف إلى ذلك المفهوم للخطاب الأفعال أو التصرفات التي قام بها الإنسان تحمل

وحدة دلالية أو نسقًا مضمراً موجهًا إلى مخاطب قريب أو بعيد. وقد أقر هذا المفهوم للخطاب الدرس اللساني الحديث وبذلك يقول عبد الهادي الشهري: ((ولذلك ورد الخطاب بتعريفات متنوعة في هذه الميادين العديدة، بوصفه فعلًا، يجمع بين القول والعمل، فهذا من سماته الأصلية))[٥] وقد وصلتنا تلك النصوص الخطابية عن طريق الرواة.

وتعقيبا على سياق تعريفات الخطاب لا بأس بإدراج قضية مهمة يجدر التنويه بها وهي العَلَاقة بين الآخر والخطاب، التي تتجلى بأن صور الذات وتآلفها مع الآخر يكون بلا شك عن طريق الخطاب المكون من اللغة الصورية والدوافع أو الكيفيات المنتجة لتلك اللغة وهي المجالات المعقدة كما عبر فوكو في تعريفه للخطاب.

في طبيعة الآخر / والآخر في خطاب الحُسين

نشأت الرؤية إلى ثنائية الذات والآخر في أحضان علوم متعددة، منها الفلسفة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع. وبعد التأسيس انتقلت فلسفتهما إلى اللسانيات والنقد لتطور نظرياتهما، وللصلة الوثيقة بين الأدب وتلك العلوم، فكان حريا أن أقف باختصار على مفهوم معين له مع أن مفاهيمه كثيرة، وغير مستقرة لتعدد الزوايا، والرؤى المنطَلَق منها.

والتماس تمثلات الآخر في الخطاب الأدبي ينضوي في الزاوية النقدية ليس من جهة تمييز الجيد من الرديء، بل من جهة أن النقد تحليل للخطاب، أو بمعنى القراءة المعمقة، أو حتى الوصف ((ولقد كان من ديدن النقاد أن يبذلوا جهودا في تنقية المصطلح ومحاولة إعطائه بُعدا علميا حياديا كأن يقال إن النقد هو تمييز الجيد من الرديء أو إنه تحليل الخطاب أو قراءة متعمقة، وربما جعله البعض وصفيا))[٦].

وعلى الرغم من عناية منهج الآخر بتشريح النص، إلا أنه متشعب المفهوم، ولا يتسم بالثبات، ويتوزع على الإنسان (الصديق- العدو)، أو (المرأة – الرَجُل)، وغير الإنسان: الطبيعة بمكوناتها الآخرى، أو أيّ شيء آخَر يندرجُ ضمن هذا المفهوم الدال على المغايرة التي أقرتها المعجمات العربية[٧]، وهذا التبني يخرج المفهوم الدال على الآخر الذي يقع خارج دائرة الانتماء. ولا يراد بالآخر في هذا البحث المختلف مع الحُسين فقط، وإنما المتفق معه أو المحايد المنتمي إلى ذاته أو غير المنتمي، أقصد القريب أو البعيد، وهذا الرأي بناء على ((أن الآخر فكرة لا تحمل فقط المختلف عقديا، بل نراها تطال أصحاب العقيدة الواحدة،

والقومية الواحدة، فالآخر ليس بالضرورة هو البعيد جغرافيًا، أو صاحب العداء التاريخي، أو التنافس))[٨].

وهذه المغايرة أقرها الدرس النقدي الحديث، فقيل فيه: ((ومفهومه في الدراسات الأدبية، والنقدية الحديثة يشير إلى المغايرة في جانب أو أكثر بين الذات والأنا، وطرف آخر ذي وجود موضوعي في الذهن او في الفن، وهو مرتبط بمصطلح (الغير) الذي يعني وضع الشيء او المرء موضع الآخر، أو المختلف، او الخارج من الانتماء إلينا. وهو بهذا المعنى مصطلح واسع الدلالات يشمل كل ما يقع خارج الذات، او يختلف عنها من مادة ومعنى))[٩].

وهنالك من يرى ان الآخر محصور بـ((المختلف أثنيا أو عرقيا، أو حضاريا بمعنى واسع لم يهتم الباحثون كثيرا على المستوى السوسيولوجي بالآخر المختلف فكريا أو عقديا، وفي الوقت نفسه بالذي ينتمي الى عرق أو ثقافة، ومجتمع واحد مع الآخرين))[١٠].

وهذا التحديد يتلاشى امام الرأي الذي يرى أنه الإنسان المغاير، أي ((الآخر في الهُويَّة، والآخر في الحمولة الايديولوجية، والآخر في الدين، والآخر في الموقف السياسي، والآخر في الذوق الفني، والآخر في المدرسة النقدية، والآخر في النهج المعرفي، والآخر في الجنس، والآخر في اللون))[١١]. وقد أضيف الى هذا الرأي مفهوم الاطلاق أي أن الإنسان وغير الإنسان من الأشياء والموجودات من مدينة أو حضارة[١٢]، وبالإمكان النظر إليه كرؤية أو فكرة، أو هاجس كأن يكون الموت أمام الذات التي تعشق الحياة، او الشر أمام الذات التي تذوب في الخير، وفي هذا الطرح تكون الذات مع الآخر في حال المعالجة، او التحدي، او التعامل، وليس على سبيل سد النقص كما يرى الدكتور سعد البازعي بقوله: ((الوقوف أمام الآخر_بما أنه وقوف أمام الاختلاف ومواجهة للمغايرة_ هو موقف كثيرا ما تتكبد فيه الذات شعورا بالنقص. فالمختلف هو ما تفتقر إليه الذات، هو ما لا تملكه. أي أن الذات في مواجهة الآخر؛ إنما تواجه نفسها منقوصة))[١٣].

ويتحتم الإشارة الى الأمر البدهي والتذكير بقيام العَلَاقة الوطيدة بين الأنا والآخر، وهذه العَلَاقة، ومحاولة الاكتشاف للآخر، ولطبيعته، ولتجلياته في النص الأدبي تبقى رهينة التأويل؛ إذ لا يوقَف على أي صورة من صوره إلا على وفق قراءة النص، وتحليله،

والاستعانة بالتأويل، وهذا يقوم على الاشتراط الثقافي لاسيما الثقافة التاريخية في قراءة الآخر المرصوف في خطاب الحُسين؛ لأنه يرسم ظروفا تأريخية تقوم على ماضيه، وماضي أهل البيت ناهيك عن معرفته بالآخر الذي خبر مكونه الثقافي، وأطماعه السياسية، وهذه النقطة الأهم في رؤية دراسة الأنا والآخر في المعطى النقدي الحديث(١٤).

وقسمت خطاب الحُسين الحافل في بعض مفاصله على قيم الآخر أربعة أقسام خطاب قبل حكومة معاوية، وخطاب في حكومة معاوية، وخطاب في حكومة يزيد، وخطاب يوم الطف وإن كان في حكومة يزيد إلا أنه ذو صفة خاصة، وخلال هذه المراحل الأربع واكب الحُسين حياة ذات مزالق عدة من الجهة السياسية، وروح الانتماء الأموي، والجهة الاجتماعية، وانغماس الناس في حب الرذائل، والجهة الدينية، ولكل من هذه الثلاثية مريدون فاقت أعدادهم العدَّ! وهذا مدعاة لتعدد الآخر، الذي جابه الخطاب الإصلاحي للجانب السياسي المتمثل في رد الإمامة، والجانب الاجتماعي وعنايته بنشر العدالة الاجتماعية، والجانب الديني واهتمامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قاد ذلك الآخر أن يتسم خطابه بطبيعة تقريعية، وتوبيخية، وافضاحية: كاشفة لسوء نوايا ذلك الآخر، وعن قيمهم التي من أهمها شرب الخمر من قبل القائد المختار وهو يزيد، وقد ينماز خطابه بالقيم العليا، والسامية ومنها قوله ((هيهات منا الذلة))، وهذه القيم متسلسلة مع الخصلة التاريخية التي تتبلور بمكانة الرسول وآل البيت عليهم السلام، وكان الخطاب المختص بالآخر قائما على الشحنات العاطفية، وإيقاظها ومنها قوله: ((وكأن بأوصالي تقطعها عُسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن مني أكراشا، وأجربة سُغبا، لا محيص عن يوم خط بالقلم...))(١٥).

ومما يدخل في طبيعته أنه مختص بالفرد وبالجماعة لما ينادي المتلقي بـ(يا أيها الناس)، وهذا الفرد قائد او مقوود، عدو أو صديق، فهو يخاطب مسلم بن عقيل، ويخاطب يزيد، كل ذلك يدور في فلك الرحمة، والتسامح، والتفاهم، والإقناع، ومتعدد الموضوعات والأغراض، فموضوعاته تتوزع على السياسة، والاقتصاد، والفقه، والتفسير، ومراميه تكون اصلاحية، وتربوية، وإنسانية، ممزوجة بالحسرة، والألم، والحرص على دولة الإسلام بدليل قوله: ((ألا ترون إلى الحق لا يعمل به))(١٦).

ومن تلك الخصائص التي انماز بها قيمه الجمالية الواضحة، ومساحته العريضة حتى أنه توزع على الوصية، والخَطَابة، والأحاديث، والإجابات، والرسائل، والمكاتبات، وغير ذلك.

تمثلات الآخر:

هنالك أكثر من إمكانية لتدوين تجليات الآخر في خطاب الحُسين وأقربها الى النفس ما يكون في ضوء الثنائيات الضدية: الموت والحياة، الزمان والمكان، الفرد والجماعة، والعدو والصديق، الحمد والذم، والداعي على هذا الاختيار، والتقسيم أن الذات الحُسينية وغيرها تكون ذات حياة، وذات زمان، وذات صداقة، وذات سلم، وذات مدح ومن ثَمَّ فهي تتعامل مع ما يقابلها بحسب الظرف ومقتضاه.

وقبل الخوض في تمثلات الآخر، أو تجلياته، أو صوره في خطاب الحُسين يجدر التنويه بذات الحُسين وإن كانت جلية، فهي تقوم على الذات المُربَّاة على الهُويَّة الإسلامية بتعبير جامع، والمرباة على القيم القرآنية، والنبوية، والمجتمعية، بتعبير تفصيلي. وهذه الذات تؤهله لأن يفهم الآخر فهما سليما، نابعا من طبيعة المؤهل الذي يشغله وهو الإمامة المرتكزة على العصمة.

شكلت الذات الحُسينية عكسا للتفكير، وقلبا للموازين من خلال زهدها بالحياة، ورغبته بما يقابلها وهو الموت، وهذا سر التحدي الذي امتلكه، وأرهب عدوه، وما زاده عنادا أن الحُسين لا يرى الحياة معه إلا مللا، ولا تطاق، ويرى مفارقته سعادة، وهناء بقوله: ((لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما))[١٧]، وهذا الهاجس جعله يؤمن بحتمية مصيره على يد عدوه، فبسببه رد نصائح أسديت إليه من مقربين كثر، ومنهم عبد الله بن عمر: ((هيهات يا بن عمر إن القوم لا يتركوني، وإن أصابوني وإن لم يصيبوني، فلا يزالون حتى أبايع وأنا كاره، او يقتلوني))[١٨]، وهذه الحتمية، والرغبة، والإيمان العميق بالموت سببها الإيمان بفلسفة الحياة القائمة على البداية والنهاية، أي شوقه الى أصحاب نقطة الانطلاقة في التوحيد الذين عبر عنهم بلفظة (الاسلاف) عند توجهه الى العراق: ((خط الموت على ولد آدم مخطَّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني الى أسلافي اشتياق يعقوب الى يوسف، وخيِّر لي مصرع انا لاقيه))[١٩].

ورأى الحُسين أن الموت بصفة الشهيد يساوي المنزلة العليا أو يساوي فتح مكة لاسيما الشهادة معه، ونصرته، فترك قوله المشهور في رسالته الى محمد بن الحنفية: ((من لحق بي منكم استشهد، ومن لم يلحق بي، لم يدرك الفتح، والسلام))[٢٠].

حمل الحديث عن الآخر (الموت) عند الحُسين دلالات عدة منها الرضا والتسليم بقضاء الله وقدره، ومنها اختطاطه منهجا على مدى الدهر وصبغه بسمة السرمدية اذ قال خط على ولد آدم، ومنها بيان ظلم عدوه، ونواياه الشريرة التي بغت، وأبت إلا قتل الحُسين، أو لإعطائه دلالة الترهيب لعدوه؛ لأن الموت خارج الفلسفة الدينية والعقدية يسبب مشاكل ورهبة لمن رغب بالدنيا، وهذا هو المائز الأساس بين الحُسين وأعدائه؛ لأنهم شُذَّاذ الناس، وطالبو دنيا ومالا، وهكذا يُحَمِّل حضور الآخر شحنات يستطيع التتبع السيميائي الوقوف عندها سواء أكان موتا أم زمانا أم مكانا، وما أحوجنا الى قراءة حضور الآخر المكاني في اختيار الحُسين له، وفي حضوره مقابلا لذاته التي آمنت بإلغاء الحدود الزمنية، والنظر الى ذاته الحياتية بأنها متأطرة بالزمان الذي يقود الى يوم الحساب ((يا عباد الله! إني عذت بربي وربكم أن ترجمون، أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب))[٢١].

وما يلحظ على الحضور المكاني في خطاب الحُسين الانحسار والتخصيص، أي انحساره بالأماكن المحددة بل الدينية المقدسة نحو مكة، والكوفة، وكربلا، لان الحُسين ليس بأديب ويسجل رحلاته، ومتخيلاته عن الأماكن أثناء صياغة الخطاب، بل سخر المكان توظيفا لهدفه المتمثل بزعزعة يزيد، ونيل الشهادة؛ لإعلاء راية الحق، التي بدأ يعمل عليها في مكة، البادئةُ في كتابة وصيته لعبد الله بن عباس حينما لامَهُ على المكوث في مكة، فجعلها شرارة الثورة، ومنبع النصرة: ((وأنت يا بن عباس، إنك ابن عم للنبي، ولم تزل تأمر بالخير منذ عرفتك، وكنت مع أبي تشير...ولا تُخفِ عليَّ شيئا من أخبارك، فإني مستوطن هذا الحرم، ومقيم بهم ما رأيت أهله يجيبونني وينصروني، فإذا هم خذلوني، استبدلت بهم غيرهم))[٢٢].

ويمكن تسمية هذا المكان بالمكان الآني، الذي عُدَ الفاعل الأساس في تحريك المعتقد أو المبدأ عند الحُسين، بل حتى عند عدوه، اذ قاتل عمر بن سعد الحُسين طمعا في ادارة مكان ما، وفضحه: ((أيْ عمر أتزعم أنك تقتلني ويوليك الدعي بلاد الري وجرجان؟ والله لا تتهنأ بذلك، عهد معهود، فاصنع ما أنت صانع))[٢٣].

تلاحظ أنه سجل المكان المرغوب فيه من لدن أبن سعد، وذكر المكان المستقبلي الذي يحدد عن طريق النبوءة الواضحة بقوله لعمر بن سعد: ((وكأني برأسك على قصبة يتراماه الصبيان بالكوفة، ويتخذونه غرضا بينهم))[٢٤]. وهذا التنبؤ لتحقير عمر، وتسفيه مطلبه، ولتقديس الكوفة بأنها تقتص من ظالم هي وأهلها من دون غيرها. وخذ المكان المستقبلي الآخر الذي صيغ بأسلوب تشبيهي بالأداة (كأن): ((وكأني بأوصالي تقطعها عُسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن مني أكراشا جوفا، وأجربة سُغبا، لا محيص عن يوم خُطّ بالقلم، رضا الله رضا اهل البيت)).

قام حضور المكان بارتباط وثيق مع حضور الموت من خلال التداخل والحدوث بينهما، أي أن التلازم باد بينهما، فخص الحُسين المكان المستقبلي بقتل عمر بن سعد، وبقتله لكن أي فرق بين القتلتين الأولى عقوبة والثانية جناية وحقدا.

بعيداً عما قيل في فلسفة اختيار كربلاء مكانا لحادثة قتل الحُسين سيكون العامل الأبرز من وجهة نظرنا هو بيان قدسية ونبواءات الرسول وأهل بيته، وهذا ما أشار اليه الحُسين ((هذه والله هي الأرض التي اخبر بها جبريل رسول الله أنني أقتل فيها، أخبرتني أم سلمة))[٢٥]، وقال: ((ذات كرب وبلاء، ولقد مر أبي بهذا المكان عند مسيره الى صفين وأنا معه، فوقف، فسأل عنه، فأخبر باسمه فقال: هاهنا محط ركابهم، وهاهنا مهراق دمائهم، فسئل عن ذلك فقال: ثقل لآل بيت محمد ينزلون هنا))[٢٦].

الميزة في الآخر المكاني أنه خوطب به الآخر الفرد والآخر الجماعة، والآخر الصديق والآخر العدو، وفاح خطابه بالآخر الفرد الذي سأقف عليه في ثنائية الصديق والعدو، اما الآخر الجماعة الأنصار، فقد ألح الحُسين على توظيفه لخدمة مذهب اهل البيت، الجماعة التي ينتسب إليها هو، فاخذ خطابه تجاه تلك الجماعة طريق الاستنصار؛ من أجل دفع مظلوميتهم.

وتتوزع ثنائية الفرد والجماعة على الآخر (الصديق) فكان على نمطين. الأول الصديق المفرد، والثاني: الصديق الجماعة. والأول يكون رجالا، ونساء، والرجال جاء على صور، الصورة الأولى أنه غير مذكور في النص، بل مشار إليه بالإحالة السياقية الخارجية، ومنه جعدة بن هبيرة لما سأل الحُسين عن موقفه بالصلح معاوية بعد وفاة الحسن ع فأجابه: ((أما

أخي فإني أرجو أن يكون الله قد وفقه وسدده، وأما أنا فليس رأيي اليوم ذاك، فألصقوا رحمكم الله الأرض وأكمنوا في البيوت، واحترسوا من الظنة ما دام معاوية حيا، فإن يحدث الله به حدثا وأنا حي كتبت اليكم برأيي والسلام))[٢٧]. والصورة الثانية أن نعته بصفة القرب وهي لفظة (عماه) لأبي ذر حينما نفي الى ديار بعيدة: ((يا عماه، إن الله تبارك وتعالى قادر على أن يغير ما قد ترى، إن الله كل يوم هو في شأن، وقد منعك القوم دنياهم، ومنعتهم دينك، فما أغناك عما منعوك، وأحوجهم الى ما منعتهم، فاسأل الله الصبر، واستعذ به من الجشع والجزع))[٢٨].

في مناداته لأبي ذر بهذه الطريقة ليشعر في خطابه أنه يهتم بالإنسان المخلَص، ويهتم بالمواقف الطارئة التي يفتعلها بنو امية مع انصار العقيدة والمذهب، كما يهتم بصاحب الصورة الثالثة ويذكر أسمه، وهو عبد الله بن عباس لما طلب منه مبايعة يزيد فرده الحُسين: ((يا بن عباس، ما تقول في قوم أخرجوا ابن بنت رسول الله ص من داره، وقراره، ومولده، وحرمة رسوله، ومجاورة قبره، ومسجده، وموضع مهاجره، فتركوه خائفا، مرعوبا لا يستقر له قرار))[٢٩].

وينبغي الإشارة الى أن الآخر الفرد النسوي في خطاب الحُسين ليس خطابا رومانسيا، أو نسويا، بل هو خطاب جامع متنوع، اختلفت طريقة التناول والمعالجة للمرأة فيه، فتوقف الأمر على ما يتعلق بحياتها الاجتماعية والأسرية، او بعض الأحكام الفقهية، وما يدخل في الآخر الفرد أن ذكر كنية أخته (أم كلثوم) في ساحة الطف لما برز زين العابدين ع للحرب فقال: ((ياأم كلثوم! خذيه؛ لئلا تبقى الأرض خالية من نسل آل محمد ص))[٣٠]. وهذه المناداة لأخته من أجل المحافظة على خط الإمامة في الأرض، وحفاظا على ولده كما يحافظ على أبناء عمومته (الآخر الصديق الجماعة) بالدعاء: ((صبرا يابني عمومتي، صبرا يا أهل بيتي، لا رأيتم هوانا بعد هذا اليوم ابدا))[٣١].

ثم يأتي الصديق الجماعة العام وهم الأصحاب، والأعوان، فيخاطبهم في عاشوراء: ((ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء ربه، ولقد آثر الموت على الحياة، لأنه يرى الحق قد تلاشى، والباطل قد استشرى))[٣٢].

وبالإمكان تقسيم الآخر العدو الى فرد وجماعي أيضا بحسب الطريقة في الصديق

المفرد مرة يفهم بالإحالة الخارجية، ومرة بالإحالة الداخلية في النص من التصريح باسمه أو بنعته. وممن أشير إليه بحسب الموقف عمر بن الخطاب لما وجده يخطب بالناس، فقال له: ((أنزل عن منبر أبي، وأذهب الى منبر أبيك))[٣٣]. يلحظ توافر اللحظة التاريخية والتوبيخية على مفصل تعامله مع الآخر حاضرة ايضا مع المفرد المصرح به معاوية بعد أن اجتمع بالحُسين، وبعض الناس، وأخذ يمدح، ويطنب بمدح الرسول، فجابهه الحُسين: ((اما بعد يا معاوية فلن يؤدي المادح وإن أطنب في صفة الرسول ص، وقد فهمت ما لبست به الخلق بعد رسول الله ص من إيجاز الصفة، والتنكب عن استبلاغ النعت، وهيهات هيهات يا معاوية!! فضح الصبح فحمة الدجى، وبهرت الشمس أنوار السرج...))[٣٤]. وتنوعت الهيئة التي جابه بها العدو، فكانت عيانا مع معاوية، وبغياب يزيد أحيانا لما طلب منه عبد الله بن عمر: ((أن أبايع يزيد، وأدخل في صلحه، وقد قال النبي ص فيه وفي ابيه ما قال)). وقد نعته الحُسين بأبشع النعوت التي تجرده من هويته، وقيمته، ووجوده، فقال فيه ((ألا وإن الدعي أبن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة، ويأبى الله لنا ذلك، ورسوله، ونفوس أبية، أنوف حمية))[٣٥].

ويروعك الحُسين لما تجده ناصحا للآخر العدو الجماعي، حريصا عليه، داعيه الى التوبة، والى الله تعالى؛ لأنه ابن بنت رسول الله ولا يحل لهم قتله يوم العاشر: ((يا أهل العراق...أيها الناس اسمعوا، ولا تعجلوا حتى أعظكم بما يحق لكم علي وحتى أعذر إليكم، فان اعطيتموني النَّصْف، كنتم بذلك أسعد، وإن لم تعطوني النصف من أنفسكم، فاجمعوا رأيكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة، ثم اقضوا إلي ولا تنظرون... أما بعد فانسبوني، فانظروا من أنا ثم ارجعوا الى أنفسكم، وعاتبوها، فانظروا هل يصلح لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ الست ابن بنت نبيكم، وابن وصيه، وابن عمه))[٣٦].

لم يسم الحُسين العدو الجماعي ليعبر عن كثرته وعن رفضه لسياسته وحكومته، ولينسبهم الى عداء معاوية وابنه يزيد، ومن أجل التحشيد على قتاله.

الصياغات والمقاصد:

يشتمل أمر الصياغة النصية في خطاب الحُسين على مساحة واسعة من المكونات اللسانية الموزعة على البلاغة، والمعجم، والنحو، والصرف، والنظر السياقي، وهذا التوزيع

يكون فاقدا للمحورية لو درسته كلا على انفراد، فقد ذهب رونق الدراسات التجزيئية، وصرنا نحبذ الدراسة الكلية او الجامعة، فرغبت أن أدرس الإقناع، ووسائل صياغته لدى الحُسين في تناوشه ذهن الآخر، ومحاولة تغير قناعاته والتأثير به، وما ساعد على هذا الاختيار انفتاح مبحث الإقناع على الجزئيات اللسانية كلها، فسيكون التناول نحويا، وبلاغيا، وصرفيا، بعيدا عن التحديد، وبناء على الانتقاء يكون الإقناع نتيجة الفعل اللساني الذي يقوم به المتكلم لتغيير قناعات المخاطب[٣٧] يضاف الى هذه الغاية الإقناعية ((التعبير عن إحساس، أو عن حالة أو عن نظرة فريدة الى العالم أو الى الذات، أو يكون القصد منه الإخبار؛ أي وصف موقف معين على نحو أكثر موضوعية))[٣٨].

وحدثت محاولة الإقناع في مخاطبة الآخر، أو في الحديث عنه في موضوعات أهمها نصرة الحُسين، واللجوء الى الله تعالى ومراجعة الذات، واستعادة حق الإمامة، وإبعاد بني أمية عن دفة الحكم التي استولت عليها بالقوة، وهذا على وفق المنطق يحتاج الى قوة معادلة، وقد فعل الحُسين ذلك الا أنه عاجز عن الاسترداد والإبعاد بحسب الإمكانات، والأدوار التي لعبها بنو أمية من اغداق الأموال على الناس، وتفعيل الجانب الإعلامي، والعنفوي بحق الاتباع، والأنصار فما كان من الحُسين إلا اللجوء الى الجانب التواصلي، ومحاولة إقناع المتلقي مع إيمانه بعدم تغيير قناعاتهم، لكنه خلَّدَ خطابا على مدى العصور، وكانت حججه من قبيل حجج السلطة بوصفه إماما معصوما ثاقب النظر، والبصيرة، وما ينطق جزافا فمورست بالفعل، والنداء، والحصر، والنفي.

ففي خطابه لمعاوية يكرر فعل الأمر: ((فابشر يا معاوية بالقصاص، واستيقن بالحساب، واعلم ان لله تعالى كتابا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها))[٣٩]. والحجة تكمن في تنبؤه لمصير معاوية، باستقرائه العقاب القرآني لجريرة الظلمة، الذين استباحوا حرمة الرسول وأهل البيت، وهذا ما أخبر أصحابه عنه فتكرر الفعل الماضي عند مخاطبتهم، ومحاولة استنصارهم: ((اما بعد فإن هذا الطاغية قد فعل بنا وبشيعتنا ما قد رأيتم وعلمتم وشهدتم واني اريد ان أسألكم عن شيء فان صدقت فصدقوني وان كذبت فكذبوني...))[٤٠].

وقد افاد من النداء في خطابه للآخر العدو مروان فجاء النداء بالياء: ((يا بن الزرقاء، أأنت تقتلني ام هو؟ كذبت والله ولؤمت))[٤١]. ويأتي أسلوب الحصر بالنفي والاستثناء

سلطة اخرى تنبع من رؤية الحُسين الوافية للحياة وللموت بوصفه معصوما: ((لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما)).

ويخاطب الحُسين أخيه محمد بن الحنفية خطابا سلطويا يقوم على النفي بلا: ((إني لم أخرج أشِرا ولا بطِرا، ولا ظالما، ولا مفسدا، وإنما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر))[٤٢].

وحاول أن يمارس خطابه مع الآخر على وفق الصورة الحجاجية عبر منفذين حجاجيين هما التشبيه والمقايسة. وقد تروعك تشبيهاته في حديثه عن الموت حين شبهه بالقلادة على جيد الفتاة، أو شبهه باشتياق النبي يعقوب ع الى ولده النبي يوسُف ع: ((خُطَّ الموت على ولد آدم مخطَّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب الى يوسف، وخيِّر لي مصرع أنا لاقيه)). او لجأ الى المقايسة بين فتح مكة واللحوق به في معركة الطف: ((فإنه من لحق بي منكم استشهد، ومن لحق بي لم يدرك الفتح والسلام)).

ضمن خطابه للآخر الجماعي أهل الكوفة لما أرسل مسلم بن عقيل إليهم الروابط الحجاجية بحرف العطف الواو: ((وإني باعث اليكم أخي، وابن عمي، وثقتي من أهلي مسلم بن عقيل))[٤٣]، قام الانتقاء النحوي لحرف الربط واو العطف، ومثلها قام الانتقاء لاسم الفعل (هيهات) الذي وظفه بمعناه الحرفي بمعنى (بعُد) في ثلاثة سياقات عدائية يزيدية أي تخص بيعة يزيد، فقال الاولى ((هيهات منا الذلة)) وقال في الثانية ((هيهات يا بن عمر إن القوم لا يتركوني)) والثالثة ((هيهات هيهات يا معاوية!!فضح الصبح فحمة الدجى، وبهرت الشمس أنوار السرج)). وفي السياق اليزيدي نفسه انتقى أسم الفاعل تعبيرا عن رفضه القاطع الدال على الثبوت والتجدد في نفس يزيد ((ويزيد رجل فاسق، شارب للخمرة، وقاتل النفس المحرمة، معلن بالفسق))[٤٤]، ليدل أصحابه عن سبب عدم امتناعه لبيعة يزيد، كما ادلهم على السبب الذي دفعه الى قتاله ليحفزهم ويرفع الهمة عندهم عن طريق الاستفهام الإنكاري: ((ألا ترون الى الحق لا يعمل به والى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء ربه، ولقد آثرت الموت على الحياة؛ لأنه يرى الحق قد تلاشى والباطل قد استشرى)).

إلى غير ذلك من الصياغات اللسانية التي يبتغي بها اقناع الآخر والمخاطب بالمقاصد

المتوزعة على المفصل الاجتماعي: من قبيل محاربة الفجور، والفسوق، وتنظيم حياة الناس، وإدارة الدولة، ووضع الحد للاستهتار الاجتماعي، وبيان مدارته لأصحابه وقيمتهم في نفسه، لاسيما المؤمنون منهم، وتقديم النصائح لهم

ومن تلك المقاصد مفصله سياسي تتمثل بعدم مبايعة يزيد، واسترداد الحق المسلوب المتمثل بالإمامة، وهذا يتطلب الاستيضاح للاتباع، والأنصار وبيان نواياه تجاه العدو.

والمفصل العسكري القائم على الاستعداد لمحاربة بني أمية، وتحفيز الهمم لدى الاتباع بغية الاستمرار بمواجهة المنكر، وفضح العدو وبيان قيمته، والنوايا السيئة التي يحملها.

والمفصل الديني المتمثل اعلاء راية الحق والإسلام، والقيام بالوعظ والإرشاد، إحياء العمل بالقرآن الكريم، وبالسنة النبوية الشريفة، والتذكير بالآخرة، وبيوم الحساب.

ختام البحث:

- البحث في الآخر منهج تأويلي يقوم على الفهم والقراءة والتحليل المنطلق من الثقافة او الافتراض القبلي عن الموضوع الدائر في النص.
- تنوع الآخر في خطاب الحُسين ما بين حياة وموت، وزمان ومكان، وصديق وعدو، وفرد ومجموع، وهذا التنوع يجعلك تقر بأنه تجاوز بوتقة الإنسان الى اخر قيمي، وزماني، ومكاني.
- تعددت الموضوعات التي دار حولها خطاب الآخر ما بين دين، مجتمع، وسياسة وغيرها.
- شكل عامل الموت آخر تمثل في خطابه من جهة الايقان به وجعله شعارا ينادي به؛ لأنه يقوده الى السعادة التي لا تتوفر بالعيش مع أعدائه؛ لأنه يشتاق الى أسلافه من أهل الله.
- المكان بحضوره آخر في خطابه قسم على المكان الآني وهو مكة، والمكان المرغوب فيه وهو الري وجرجان والطمع في حكمهم من لدن عمر بن سعد، والمكان المستقبلي على اساس النبوءة وهو مكان مختص بالقتل، قتل عمر بن سعد، وقتل الحُسين.

- وفي ثنائية الصداقة والعداوة وجد الآخر الصديق والآخر العدو، بنسبة اكبر من أي نوع من أنواع الآخر في خطابه، وقسم الصديق على المفرد والجماعي، والمفرد بثلاث صور، الأولى يفهم بها من خلال السياق، والثانية مشار اليه بنعت، والثالثة مصرح باسمه. وقد يتوزع الصديق ايضا على الرجال والنساء. ويأتي الآخر العدو بنمطي الإفراد والجماعة أيضا والمفرد إما يفهم بالإحالة الخارجية، او مصرح باسمه نحو معاوية ويزيد، او مشار اليه بنعت. اما الجماعي فعادة ما يكون عائما لتصوير اتساعه وكثرته.
- تداخل خيوط الآخر فيما بينها وارتكاز بعضها على بعض، فالشخص، والمكان، والموت، والصديق، والعدو كلها احداث في تصارع مع ذات واحدة ويتوقف أحدها على الآخر.
- خطابه خطاب أدبي انماز بصياغات فنية اهلته لان يكون نصا أدبيا عالي القيم والتصوير ليكون خطابا متشحا بالإقناع القائم على حجة السلطة المتأتية عبر استعمال الفعل، والنداء، والنفي، والحصر، ثم القائم على الصورة المنسكبة في التشبيه، والمقايسة المنسبكة مع الجزئيات النحوية من قبيل استعمال أسم الفعل، والرابط الحجاجي حرف العطف، فضلا عن السمة الصرفية في استعمال اسم الفاعل.
- تعددت المقاصد مع الآخر بين الاجتماعية من خلال اقرار القيم الاجتماعية التي ترفض شرب الخمر، وقتل النفس، والإشهار بالفَتْك، والمُجون، والسياسية المتمثلة بحق الإمامة، والدينية المتمثلة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

Abstract

As we all know that the scholars have addressed the meaning of " the other " in Imam Hussein's speech , from several point of views ; such as psychology, sociology, philosophy, and science of criticism, which qualifies it

(the concept of " other ") to be more studied and addressed , specially the relationship based on the dissection and textual analysis sides , where there is a widening of criticism concept , more than the distinction between the good and bad. The meaning of " discourse " was already clarified at the beginning of this research , and how its concept has been graded , where it was just a discourse synonymous at the beginning, even by referring to some long articulations with singular objects, to its understanding in light of the knowledge dimension of " Michel Foucault " , which was a complex net of cultures over how to produce the discourse; where all these merits are available at the product of Imam Hussain discourse , that it was multi themes one , full of political , religious and social visions, it has reprimand , censure and exposure properties ; where all of these themes were moving in light of the " other " meaning , represented by the contra duality , including: life and death, time and space, the individual and the group and the friend and enemy ; where Imam Hussein reflected his vision of life and death, that life was as a tedious, and death is happiness ; and the holy presence of other spatial meaning in his speech represented by Mecca, Kufa and Karbala, where he divides himself among the current place and where he reached , and the favored place to go or to reach to , and the future one ; all these themes of the " other " come through different forms , solely or in group ; as a friend or enemy ; the single friend as a man or woman such as " Umm Kulthum " and " Ahlulbait women " , and the single enemy such as: " Mua'awiyah " and " Yezeed " , or through a group of them , such as: the enemies and adverses , where he dealt with them according to the situation; where if necessary to reprimand , he reprimanded them ; and acted as it was required and necessary to do with his enemies. Addressing the " other " came through many lingual phrases and words which belonged to the authority enjoyed by Imam Hussein as an infallible imam who is aware of his recipients or hearer from the cultural point of view and their background , and also from the idiosyncratic configuration point of view , for that reason , his lingual phrases and words came as arguments aiming the persuasion of his hearer who disbelieve him, and he used both types of verb (the command and past) , (the appeal, and question) , (the negative and limitation) , and (the present participle and gerund), beside using the other linguistic particles, which envisaged many purposes in his speech with the " other " , including: the care and guidance, justice for Ahlulbait , the recovery of their Imamate, the application of the Sunnah, respecting the holy Koran, the organization of society, expose the spoilers, and other purposes.

هوامش البحث

(١) ينظر: الخطاب بين المعنى اللغوي والمفهوم الاصطلاحي (علي حسين يوسف)، مقال منشور على الإنترنت، موقع كتابات.

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون (التهانوي)، تحقيق: أحمد حسن بسج، منشورات دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٨م.: ٢/ ٥- ٦.

(٣) لسانيات النص النظرية والتطبيق مقامات الهمذاني أنموذجا، ليندة قيّاس مكتبة الآداب القاهرة- مصر، ط١، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م: ٣٩.

(٤) دليل الناقد الأدبي (د. سعد البازعي، د. ميجان الرويلي)، ط٣، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، ٢٠٠٢م.: ١٥٥. ويقارن: لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والإجراء (د.نعمان بو قرة): ١٨. وله أيضًا مفهوم يقوم على استجلاء المعنى المضمر من النص، وقد ارتبط بنظرية أفعال الكلام أي فهم الإنجاز والتأثير من النص. ينظر: دليل الناقد الأدبي: ١٥٥، وينظر: الخطاب وخصائص اللغة العربية دراسة في الوظيفة والبنية والنمط (د. أحمد المتوكل)، الدار العربية للعلوم ناشرون- بيروت لبنان، ومنشورات الاختلاف الجزائر- الجزائر، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.: ٢٢.

(٥) استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية (عبد الهادي بن ظافر الشهري)، ط١، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت-لبنان، ٢٠٠٤م: ٣٤.

(٦) تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط (د. نادر كاظم)، من مقدمة عبد الله الغذامي للكتاب، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- لبنان، ٢٠٠٤م: ٩.

(٧) ينظر: الآخر في الشعر الجاهلي المعلقات أنموذجا (فاضل حمد مكوار الغزي)، رسالة ماجستير، جامعة القادسية- كلية التربية: ١- ٥، وينظر: لسان العرب، (أبن منظور): ٨٦ ، مادة (آخر)، و: تاج العروس من جواهر القاموس، (الزبيدي): ١٠ / ٣٣ - ٣٤.

(٨) صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية (بلال سالم الهروط)، رسالة دكتوراه، جامعة مؤتة، ٢٠٠٨م: ١٦- ١٧، و: ثنائية الأنا/والآخر الصعاليك والمجتمع الجاهلي (عبد الله بن محمد طاهر التريسي)، بحث منشور في مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب بدمشق، العدد ١٢٠- ١٢١، ٢٠١١م: ١٧٣.

(٩) ثنائية الأنا/والآخر الصعاليك والمجتمع الجاهلي: ١٧٣.، وينظر: خطاب الآخر خطاب نقد (التأليف الأدبي الحديث أنموذجا) (د.عبد العظيم رهيف السلطاني): ١٦، المركز العالمي لدراسات الكتاب الاخضر بنغازي، ليبيا، ط١، ٢٠٠٥.

(١٠) النظام والكلام (الذات والآخر) (ادونيس)، دار الآداب د.ط بيروت- لبنان: ٧٠.

(١١) صورة الآخر (صورة الآخر المختلفة فكريا سوسيولوجية الاختلاف والتعصب (حيدر ابراهيم علي): ١١١.

(١٢) في مفهوم الآخر (سلام المالكي)، مجلة المنهج العدد: ٢٣، ١٤٣٤هـ: ١٧٠.

(١٣) مقاربة الآخر مقارنات أدبية (د.سعد البازعي)، دار الشروق، القاهرة- مصر، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م: ١٢.

(١٤) ينظر: صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية: ١٤.

(١٥) أعلام الهداية (الامام الحُسين)، مجموعة مؤلفين، ط١، الاميرة للطباعة والنشر، الخضراء للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ٢٠٠٥م:٥/ ١٧٤.

(١٦) أعيان الشيعة (العاملي): ١/ ٥٩٧ نسخة الكترونية.

(١٧) المعجم الكبير (للطبراني): ٣/ ١٠٤. و: اعيان الشيعة:١ / ٥.

(١٨) كلمات الامام الحُسين: ٣٠٣.

(١٩) الانتصار (العاملي): ١/ ٣٦٧.

(٢٠) بحار الانوار الجامعة لدرر اخبار الائمة الاطهار(المجلسي)، ط٢، مؤسسة الوفاء، بيروت- لبنان، ١٩٨٣م: ٤٥/ ٨٥.

(٢١) اعيان الشيعة: ١/ ٦٠٠.

(٢٢) مقتل الحُسين (الخوارزمي): ١/ ١٩. وبرواية مختلفة ببعض الالفاظ

(٢٣) احقاق الحق (التستري): ١١/ ٦٢١.

(٢٤) بحار الأنوار: ٥٤/ ٨.

(٢٥) أعلام الهداية: ٥/ ١٨٥.

(٢٦) حياة الحيوان (الدميري): ١/ ٨٧. كلمات الإمام الحُسين: ٣٤٢.

(٢٧) احقاق الحق: ٢٧/ ١٥١.

(٢٨) بحار الأنوار: ٢٢/ ٤١١.

(٢٩) كلمات الإمام الحُسين: ٣٠٥.

(٣٠) بحار الأنوار: ٤٥/ ٤٦.

(٣١) أعيان الشيعة: ١/ ٥٨٢.

(٣٢) أعيان الشيعة: ١/ ٥٩٧. و: موسوعة سيرة أهل البيت الامام الحُسين (باقر شريف القرشي)، تحقيق: مهدي باقر القرشي، مؤسسة الإمام الحسن، طبعة إيران، ط٢، ٢٠١٢م: ١٣/ ٢٨٧.

(٣٣) كشف الغمة في معرفة الأمة، تأليف أبي الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الارملي،(ت: ٦٩٣هـ)، ط٢، دار الأضواء، بيروت- لبنان، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م: ٢/ ٤٢.

(٣٤) الإمامة والسياسة (ابن قتيبة): ١٤٧.

(٣٥) أعيان الشيعة: ١/ ٥٧١.

(٣٦) أعلام الهداية: ٥/ ١٩١- ١٩٢.

(٣٧) ينظر: بلاغة الخطاب الإقناعي نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب (د.حسن المودن)، ط١، كنوز المعرفة، عمان- الأردن، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م: ٢٢.

(٣٨) الحجاج في التواصل (فيليب بروطون)، ترجمة محمد مشبال، وعبد الواحد التهامي، ط١، المركز القومي للترجمة، القاهرة - مصر، ٢٠١٣م: ١٨.

(٣٩) أعيان الشيعة: ٥٨٢/١.

(٤٠) الغدير (الشيخ الأميني): ١٩١/١.

(٤١) موسوعة سيرة أهل البيت الأمام الحُسين: ٢٥٥/١٣.

(٤٢) احقاق الحق: ٦٠٠/١١.

(٤٣) موسوعة سيرة اهل البيت الإمام الحُسين: ٣٤٠/١٣.

(٤٤) موسوعة سيرة اهل البيت الإمام الحُسين: ٢٧٤/١٣.